حوارية

الوهم

إرادة زيدان الجبوري

ـ شكراً. أحب هذا النوع من السكائر.

(يتفحص السيكارة بعينين زائغتين ثم يشعلها. يذرع الغرفة جيئة وذهاباً. الغرفة أنيقة، مؤثثة ببساطة؛ سرير ذو شرشف وردي، كرسيان خشبيان ومكتبة صغيرة).

ـ مع كل سيكارة أشعر بأن الأشياء تعود من جديد. تبدأ من نقطة. تحترق.. تحترق. تموت من جديد متلاشية مع دوائر الدخان.

ـ ما الذي يقلقك؟

ـ الذي يقلقني! أنت تعرف إن اختفاء الأشياء، لنقل موتها، دليل على وجودها. أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ (يتوقف برهة. يعاود ذرع الغرفة بخطوات أسرع).

ـ لكن، ألا يحتمل أن يكون الاختفاء هذا غير حقيقي وأنه مجرد شكل من الأشكال المضلّلة؟

ـ لكنك بهذا تقرها أيضاً. التضليل سمة الأشياء الموجودة.

ـ وغير الموجودة. هل لي بسيكارة أخرى؟

ـ تفضل.

(يتناولها بكف مرتعشة وأصابع صفراء الجوانب والنهايات).

ـ ربما الدهشة هي الحقيقة الأكيدة التي تصورت أني عشتها مع كل التفاتة أو نظرة. وأنا أتلمّس الشيء الجديد غير مصدّق أن هذا القرص الأحمر يتوارى مساء خلف الجبال، الأنهار والبيوت. الدهشة امتصّت كل وجود الأشياء. جعلتها معلقة هكذا في اللامكان. أراها كبالون يتمايل دون جاذبية، متخماً بفراغ هو كل ما يحويه ويظل بلا حدود زمنية.

(يتجه نحو نافذة الغرفة المغلقة. يزيل الستارة. يجول ببصره كمن يتوقع رؤية شيء ما. يستدير. يضع رأسه بين يديه).

ـ أنا تعب. تعب حدّ التخدر.

ـ لماذا لا تجلس؟

(يتجاهل سؤاله قائلاً):

ـ حاولت مراراً أن أنام لكني فشلت. كانوا في البداية يحقنونني بالمورفين. لكنهم عدلوا عن ذلك بعدئذ. لم تعد تؤثر بي حقناتهم تلك. عندما كنت صغيراً، كانت جدتي تقص عليّ قصص الجنيات والأبطال الذين يقضون أيامهم على ظهور الخيل. لا يموتون رغم الصعاب. كنت أتلصص على جدتي من تحت الغطاء وهي تتسلل خارجة من الغرفة معتقدة أني نمت. كنت أجلس طوال الليل أفكر بأولئك الرجال وأرثي لحالهم. أتصوّرهم حزانى، تعبين، لا يجدون وقتاً

للنوم أو لحلق ذقونهم فتصبح طويلة تصل خصورهم النحيلة. حينها يبدد ظلمة الغرفة شيخ طيب ذو لحية بيضاء كالثلج وملابس نظيفة فضفاضة. يجلس قرب رأسي. بحنان يسألني:

- لماذا لا تنام؟

- إني حزين من أجل أولئك الرجال.

- وأنا كذلك. لذا أنا هنا.

اترك فراشي. اجلس في حجرة فيضمني إليه بقوة حتى أغفو. في الصباح كنت أحدث جدتي عن ذلك الشيخ فتستمع إليّ باهتمام ثم تتركني لتشعل الشموع والبخور في أرجاء المنزل طالبة من أمي أن تعد عشاء لإطعام الفقراء الذين يتوافدون إلى الجامع مع آذان المغرب. كنت أرافق أمي إلى الجامع وهي تحمل الطعام فأرى جموع المصلين. أبحث بينهم عن ذلك الشيخ. لا أجده. كانت جدتي تقول إنها روح جدك تزورنا لكني لم أكن أصدق ذلك. لم يكن الشيخ يشبه جدي. التزمت الصمت ولم أعد للتحدث عن تلك الزيارات. كنت انتشي لامتلاكي سراً لا يشاركني فيه أحد. توقفت عن اللعب مع أطفال المحلة وإذا لعبت معهم سرعان ما اتركهم شاعراً بالذنب. كان حزن الشيخ والرجال المتعبين يرافقني. بات يلازمني. كم كانت الأشياء حقيقية! الحزن، الفرح، الدهشة، البكاء، والـ. . .

- إذن فنحن متفقان أن ماضي الأشياء يثبت وجودها؟

- من قال إن الماضي ليس إلاّ حلماً نقتات عليه حتى نظل ندور في هذه الدائرة المفتوحة؟ تصور دائرة مفتوحة! ها ها! هاها.

(يتوقف مبتسماً وهو يرسم أشكالاً في فضاء الغرفة بينما يراقب الطبيب حركاته باهتمام مدوناً بضع كلمات).

- في المدرسة كان وجودي يضايق المدرسين والطلاب على السواء، كنت أشعر أن كل ما يقال أعرفه أو أني سمعته من قبل. لم يكن هناك ما يمكن أن يعلموني إياه. في بعض الأحيان، كنت اطرد من الصف لأني لا أحتمل المعلم وهو يكرر الدرس أكثر من مرة. فاخرج أصواتاً مضحكة أو أبكي فأطرد. أخرج إلى باحة المدرسة. أتأكد من عدم وجود شخص يراقبني. اتسلق السور متجهاً إلى بستان غير بعيد. أتسلق جداره الطيني. أعلق حقيبتي بغصن شجرة. ثم أبدأ بمسابقة نفسي حتى يحين وقت العودة. مع صفعة من والدي يتبدد كل شيء. انتظر زيارة الشيخ، أشكو له. يحتضنني قائلاً:

- إنك ولد طيب. يجب أن تكون كذلك دائماً.

- لم لا يكونون هم كذلك؟

- جميع الناس طيبون يا ولدي. لكنهم متعبون فيبدون قساة. ستفهم عندما تكبر.

- لا أريد أن أكبر. الكبار أشرار.

كان صوته هادئاً، عميقاً وهو يردد تلك الكلمات «كن ولداً طيباً. . كن ولداً طيباً».

لكني لم أكن كذلك. كان مدير المدرسة يستدعي والدي دائماً ويحدثه عن تصرفاتي غير الطيبة. وذات يوم طردت من المدرسة نهائياً بعد أن تفوهم بتلك الكلمات.

- ماذا قلت؟

- لم أقل شيئاً. كان معلم الدين يقول إن الله يعاقب الأشرار بشدة. قلت له إن الله طيب لا يؤذي أحداً. إنه ينصح الأشرار ويطلب منهم ألا يعودوا إلى فعل الشر فيخجلون منه ثم يكفون عن ذلك. قال لي غاضباً:

- لا إن الله يعاقب كل شرير ويحب الطيبين فقط.

- لا يا أستاذ: إنه طيب وحنون يحتضنني كل ليلة ويطلب مني أن أكون ولداً عاقلاً. لماذا تقسو عليه؟

حينها صرخ في وجهي قائلاً:

- اخرج من الصف يا كافر. اخرج. . اخرج.

سمعت هذه الكلمة كثيراً. اخرج. . اخرج. . اخرج. في تلك الليلة تصورت أن الزمن قاس كمعلمي ذاك. كان الوقت يرفض السير. بكيت كثيراً. دعوت الله. توسلت إليه أن يأتي ولا يخذلني. ومن تعب غفوت. حلمت به وهو يمسك بيدي ويقودني إلى بستان جميل.

عندما أردت تسلق سياجه الطيني طلب مني أن لا أفعل.

قال لي: تعال ندخل من الباب.

- ربما لن يقبلوا.

- إنهم طيبون. سنرى أنهم يرحبون بنا.

كانت دهشتي كبيرة وأنا أرى بوابة البستان الكبيرة مفتوحة على مصراعيها. لم يكن هناك أي حارس، كنت أسير مذهولاً وسط الناس الذين كانوا يمرحون ويغنون بفرح. كان الجميع يعرف الشيخ ويحييه بابتسامة. كنت أشعر بالفخر وأنا أسير إلى جانبه ممسكاً بيده. توغلنا في البستان الكبير وتسابقنا معاً. قلت له:

- أشكرك لأنك أتيت. دعوتك هذا المساء كثيراً. أتعرف ما حصل معي اليوم؟ يقولون إني...

- اعرف ما يقولون. لا تكترث يا بني. استيقظ لأضمّك إليّ.

- لكني مستيقظ وأسير معك!

- أعرف أنك معي في كل زمان ومكان! أنا معك دائماً. لن أخذلك أبداً. انهض لنتحدث.

نهضت. كان يجلس في مكانه المعتاد. همس قائلاً:

- من الذي سبق الآخر؟ إنك لا تتعب بسرعة. أأعجبك البستان؟

- نعم. لكن كيف كنا في البستان منذ لحظة وها نحن الآن هنا؟

- بإمكانك أن تكون في أي مكان وزمان ترغب مادمت تريد ذلك بصدق.

- وماذا عن الأشرار سيدي؟

- ما بهم؟

- هل يمكن أن يحققوا ذلك؟

ضمني إليه. انتظرته أن يتحدث بعد صمت خلته لن يتوقف لكنه أجابني قائلاً:

- ليس هناك من هو شرّير مادام يملك قلباً. ربما توحي لنا أفعالهم الشريرة بذلك لكنهم حقيقة طيبون.

- انظر، هذا ما فعله الطيبون. (يرفع ردنيه فتظهر بقع زرقاء منتشرة على ساعديه. يشير إلى صدغيه ليريه التتوئين البارزين) انظر! هذا ما فعله الطيبون. سنوات وهم يمارسون تعذيبي، يتلذذون بتسليط موجاتهم الكهربائية. ما عليهم سوى ربط الشاة العنيدة، قهرها حد التسليم ثم يشهرون ألسنتهم، سكاكينهم، ويرقصون رقصتهم الدائرية المتوحشة. تفضل سيدي. افعل ما يحلو لك. اقتطع كتفي أو عيني. اختر أي جزء شئت. لم يعد هناك ما أخشى عليه. لقد صاروا كل شيء. إني أتألم من أجلك. لن تجد ما يشبع نهم أوراقك. ستقول إنك لا تشبههم.

- كيف عرفت؟ أنا لا أشبههم.

- ألم أقل لك إني أعرفكم. كلكم تقولون هذا في البداية.

- لكنك لم تعطني فرصة لتتأكد.

- وهل منحوني لحظة ليعرفوا أني لست بمجنون؟ النتيجة كما ترى: مجنون في مصحة خاصة. سجين في غرفة جميلة. لكنهم كرماء معي. يسمحون لي بالتنزه في الحديقة. أترى كم أنا سعيد!

- لا أطلب منك غير قليل من الثقة. سترى أنك لست العاقل الوحيد بين جموع المجانين. أنا مثلك تماماً.

(ينظر إليه باستهزاء) قائلاً:

- أتريد القول إنك سجنت في مصحة عقلية وأمك تزورك بين حين وآخر تحمل بعض الفواكه. تنظر في ساعتها لتقول لك إن والدك وحده في البيت ويحتاج العناية؟ هل زارك والدك ليحدثك عن أحوال الطقس ثم يعتذر عن المكوث معك دقائق أكثر، متشكياً من ألم في الظهر؟ أم حبيبتك تجاملك فتتخذ مقعداً قريباً من باب الغرفة؟ ترى الخوف في عينيها خشية نوبة جنونية قد تنتابك وتنسحب من الغرفة لتكف عن زيارتك إلى الأبد؟ الجميع يعتذر بالمرض، بالوقت، بزحام الطرقات، بالأطفال، بالمواعيد، بالأعمال التي لا تنتهي وبالـ... و.. و.. بعدها تجد نفسك وحيداً.. وحيداً كدمعة متمردة. تلجأ إلى الكتب، تقرأ، تحلم، تثور.. وماذا بعد ذلك كله؟ سأخبرك. ليس هناك من

شيء سوى الوحدة. ترتديها مع ثيابك. تشربها مع كوب حليبك الصباحي.

ـ كل منا وحيد. أتظن أن من يعيش خارج هذه الأسوار ليس بوحيد؟ أنت مخطىء. الوحدة هناك مريرة. يرتشفها المرء بصمت وقناعة. دائرتك مفتوحة بينما دائرة العالم القاسي الذي تتحدث عنه مغلقة. لعنة أبدية جعلت تلازمها، تخنقها. ما على الرجل إلاّ النظر في عيني امرأة، ينتفخ بطنها، صرخة طفل، بالون دهشة يتفرقع، زغب خفيف يعلن رجولتك، أحلام يقظة ثم همسة قلقة تسكبها أمك في أذن والدك «الولد كبر. أصبح رجلاً». تنظر في عيني امرأة، تلتصق بها، تفرغ قذارتك، . . . ، . . . ، ينتهي ويبتدىء كل شيء من جديد. أيمكن أن تنحو الأشياء غير هذا المنحى؟ أجبني. لماذا تلتزم الصمت؟ قلنا طيبون وأشرار.

(يقول هذا ثم يترك كرسيه ذارعاً الغرفة جيئة وذهاباً).

ـ هل تسمح لي بسيكارة؟ (يسأل لكن المجنون لا يجيب. . يدخن بعصبية واضحة. يطلق دوائر دخان تتراقص في أرجاء الغرفة. تتلاشى مكونة سحباً رمادية تتأرجح بغنج. خطواتهما متعاكسة، يدخنان. يتحدثان بالوقت نفسه دون أن يستمعا إلى بعضهما).

ـ قد يكون الأمر مثلما تعتقد. لكن ليس تماماً. أنا أحمل ذكريات كالتي عندك. أي هناك قيمة مشتركة للأشياء.

ـ الذكريات خيط يشدنا إلى الأوهام. يصل بنا إلى ما نحن عليه الآن.

ـ أنا أحب جدتي التي رحلت وهي تضع أمي. أمي حزينة دائماً. تقول إنها فقدت قدرتها على تصور الوجوه. كل الوجوه التي تمر بها عائمة لا تنفذ إلى أعماقها لتخلف وجها لأم راحلة. كل الملامح متشابهة.

ـ عملية تقليد لا غير. التفكير، الخطوات، الشهيق والزفير، الحب، الجنس، الكذب، الموت، الولادة. كل شيء مكرور وعقيم حتى الولادة.

ـ ولادة طفل في بيت جدي، هناك في الريف، تصاحبه طقوس لا بد منها. أهمها غرس نخلة تسمى باسم الوليد. تكبر معه. يسقيها. يتسلقها. يترقب «الجمري» وهو يتحول من لونه الأخضر فالأصفر. ينضج. يقطفه.

ـ بعد كل تلك العمليات نرتاح لكنا نظل ننتظر الـ. . .

ـ ذهبت مع أمي أثناء زيارتها لخالها. سألته:

ـ لمن هذه النخلة الفارعة يا جدي؟

قال لي وهو يختنق بدموعه ـ إنها نخلة جدتك كبرت معها. تسلقتها، ثم. . .

ـ ثم ماذا يا جدي؟

تركني وذهب. احتضنت النخلة. بكيت. قبلتها. ناديتها جدتي. اعتقدت حينها أن النخلة ستحبني لأني حفيدها. لكنها ظلت صامتة. توسلت إليها أن تحدثني عن طفولتها. رفضت. أدركت أن العالم وهم، كذبة.

ـ وهم! كذبة!

ـ نعم وهم كبير.

ـ لكن الوهم قلت لي سمة الأشياء الموجودة.

ـ وغير الموجودة. أتسمح لي بسيكارة أخرى؟

بغداد